لَـمْ تَـعْـرِف الْـدُّنـيـا فِـداءً مِـثْـلَـه لِمَا ابتنى بِهَا صَاحِب الإسراءِ
وتَبَادَر الصحب الكِرَام فأطلقوا من أهْلها مَنْ كَانَ فِي الأَفياءِ
وأبَوْا لأصهار النبي مهانةً وَلأجْلِهَا بَاتُوا مِن الطلقاءِ
رَحِمها الله تَعَالَى

السيدة حسّانة المُزنيّة رضي الله عنها

قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: كان اسمها «جَثَّامة» فقال لها رسول الله ﷺ: (بل أنت «حسانة المزنية»)، كانت صديقة «خديجة» زوج النبي ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يصلها، ويقول: «حسن العهد من الإيمان».

أخبرنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن يونس، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا صالح بن رستم، حدثنا ابن أبي مليكة، عن عائشة، قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ، فقال لها: (من أنت؟) قالت: أنا «جثامة المزنية»، قال: (بل أنت «حسانة المزنية» كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟)، قالت: بخير، بأبي أنت وأمي، يا رسول الله! فلما خرجت، قلت: يا رسول الله! تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال، قال: (إنها كانت تأتينا أيام «خديجة»، وإن حسن العهد من الإيمان)، قال أبو عمر: هذه الرواية أولى بالصواب. وروى ثابت عن أنس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أهديت إليه هدية، قال: (اذهبوا ببعضها إلى فلانة، فإنها كانت صديقة «خديجة» وإنها كانت تحب «خديجة»)[1].

(1) الاستيعاب (4/ 1810-1811) وأسد الغابة (5/ 249).

السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

سيدتي حفصة، أم المؤمنين! حقاً إنك لذاتُ حظ عظيم. أما لماذا؟ فلأنه وَلَدَكِ إمام العادلين، وتزوجك سيد المرسلين، وكان أخوك «عبد الله» علماً من أعلام الدين، فهل وراء ذلك ما تبتغين وترجين؟.

نسبها: إنها «حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل» وأمها «زينب بنت مظعون» وأخوها لأمها وأبيها «عبد الله بن عمر» صاحب رسول الله ﷺ المهتدي بهديه، والمترسِّم خطاه رضي الله عنه وأرضاه.

ولدت قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنوات، وكانت قريش تجدِّد بناء البيت العتيق، بعد أن تعرضت لسيل جارفٍ صَدَّع بنيانها، وَقوَّضَ بعض أحجارها.

زواجها من رسول الله ﷺ: كانت «حفصة بنت عمر» رضي الله عنهما تحت «خُنَيْس بن حذافة السهمي»، وقد أسلما وهاجرا إلى المدينة، وكانت حياتهما حافلة بالسعادة والهناء، لكن صفو الحياة لا يدوم.

فقد خرج «خنيس» مع رسول الله ﷺ إلى بدر لقتال أعداء الله من المشركين، وأَكتَحَلت عيناه بالنصر المبين، الذي امتَّن الله به على المسلمين، وشهد صناديَد قريش، وأكابر مجرميها، وقد أصبحوا جثثاً هامدة على أرض المعركة بعد أن أسكَتَت سُيُوف المسلمين فيها الحياة، ولم تَفُتْه رؤية «أبي جهل» فرعون الأمة، وكبير سفهاء قريش وهو يسحب مع نظرائه من الطغاة ليلقوا في قليب بدر، بعد أن أمر النبي ﷺ بذلك.

كان يوم بدر، نصراً مؤزراً أنجز الله فيه وعده لرسوله ﷺ حيث قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]. وعادت قريش: إلى مكة تجر أثواب الخزي والعار، بعد أن لحق بها أعظم اندحار، وعاد رسول الله وأصحابه إلى المدينة، و على رؤوسهم أكاليل الغار، بعد أن فازوا بأعظم انتصار، ولكن «خنيساً» زوج «حفصة» كان مثخناً بالجراح التي أصابته أثناء القتال. وعكفت الزوج الحنون تعالج جراح زوجها؛ وتدعو الله له بالسلامة،

إلَّا أن الجراح البليغة التي أصابته؛ جعلت شفاءه أمراً قصياً بعيد المنال، حيث اشتد هزاله، وغطى الشحوب وجهه، ولم يلبث أن فارق الحياة. واستسلمت المؤمنة الصابرة لأحزانها، ولم تُبْدِ غير الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم الكامل لإرادته وأمره.

وكان والدها «عمر» رضي الله عنه يراقب ابنته عن كثب ليعلم أثر الفاجعة التي منيت بها بفقد زوجها، وغمه أشد الغَّم ذلك الحزن البالغ الذي تُغْرقُ نفسَها فيه، فعزم على انتشالها منه بكل طاقته، وما إن أنهت ابنته «حفصة» عدتها حتى بدأ تحركه لتنفيذ ما عزم عليه، ومن أمْضَى عزيمةً من «عمر»؟. ولكن ما الذي صنعه «عمر» يا تُرَى؟.

لقد نشد العون عند ثلاثة من صفوة أصفيائه، فخيَّب الأول أمله، وأثار الثاني حفيظته، وكان الثالث أعظمهم فضلاً، فقد أعطاه أكثر مِمَّا ابتغاه، وأوفى مِمَّا تمنَّاه.

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه الحديث الذي يتضمن طلب «عمر» وردود أصفيائه الثلاثة عليه، فقال: [حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، قال: أخبرني سالم بن عبد الله، أنه سمع عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما يحدث: أن «عمر بن الخطاب» حين تأيَّمت «حفصة بنت عمر» من «خنيس بن حذافة السهمي»، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال «عمر بن الخطاب»: أتيت «عثمان بن خطاب»، فعرضتُ عليه «حفصة»، فقال: سأنظر في أمري، فلبثتُ لياليَ، ثم لقيني، فقال: قد بدا لي ألَّا أتَزوج يومي هذا، قال عمر: فلقيتُ «أبا بكر الصديق» فقلت: إن شئت زوجتُك «حفصة بنت عمر». فصمتَ «أبو بكر» فلم يَرْجِعْ إليَّ شيئاً، وكنتُ أوْجَدَ عليه مني على «عثمان»، فلبثتُ لياليَ، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتُها إياه، فلقيني «أبو بكر» فقال: لعلك وَجَدْتَ عليَّ حين عرضتَ عليَّ «حفصة» فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضتَ عليَّ، إلا أني كنتُ علمتُ

أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكُنْ لأُفْشِيَ سرَّ رسول الله ﷺ ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتُها][1].

وهكذا تزوج «حفصة» أفضلُ أصفياء أبيها الثلاثة، رسول الله ﷺ أما رفض «أبي بكر» لها فلعلمه أن رسول الله ﷺ ذكرها، وأما عدم رغبة «عثمان» في الزواج منها، فلأن أمر السماء وصل إلى رسول الله ﷺ أن يزوج ابنته «أم كلثوم» من «عثمان» على مثل صداق أختها «رقية» المتوفاة مرجعَ المسلمين بالنصر المُظَفَّر من بدر.

وقد أخرج ابن سعد في طبقاته من طريق الواقدي، عن «عمر» رضي الله عنه. [قال: لما توفي «خنيس بن حذافة» عرضتُ «حفصة» على «عثمان»، فأعرض عني، فذكرت للنبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! ألا تعجب من «عثمان»؟ إني عرضت عليه «حفصة» فأعرض عني، فقال رسول الله ﷺ «قد زَوَّجَ الله عثمان خيراً من ابنتك، وزوَّج ابنتك خيراً من عثمان».

قال: وكان «عمر» عرض «حفصة» على «عثمان» متوفى «رقية» بنت رسول الله ﷺ وكان «عثمان» يريد يومئذ «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ فأعرض «عثمان» عن «عمر» لذلك فتزوج رسول الله ﷺ «حفصة»، وزوَّج «أم كلثوم» من «عثمان»][2].

وصدق رسول الله ﷺ فأم كلثوم خير من «حفصة» دون مدافع، ورسول الله ﷺ خير من «عثمان» دون منازع، فما كان رسول الله ﷺ ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4]. وهكذا أصبحت أماً للمؤمنين.

من فضائل حفصة رضي الله عنها: عاشت «حفصة» رضي الله عنها في بيئة جهاد، من أجل إعلاء كلمة الله، ونصرة دعوة رسوله ﷺ فقد شهد «بدراً» مع زوجها

(1) صحيح البخاري رقم (4830).
(2) طبقات ابن سعد (8/ 83).

«خنيس بن حذافة» من أهلها «عمر بن الخطاب» أبوها، و «زيد بن الخطاب» عمها، وثلاثة من أخوالها هم: «عثمان» و«عبد الله» و «قدامة» بنو مظعون، وابن خالها «السائب بن مظعون» رضي الله عنهم. وكان والدها «عمر» رضي الله عنه يحسن الكتابة والقراءة، ولذلك سلكت سبيله في العلم، وبعد أن دخلت البيت النبوي، كانت «الشِّفاء بنت عبد الله العدوية» تدخل عليها، فأمرها النبي ﷺ أن تعلمها «رُقْيَةَ النملة»، فقال لها: (علميها رقية النملة كما علمتيها الكتابة). وقد أدى تعلمها الكتابة إلى حوض غمار الفقه حتى غدت أحد مراجعه، وكان أبوها «عمر» يرجع إليها في مسائل النساء خاصة.

وأكبت على دراسة القرآن الكريم، والحديث الشريف، وفنون الأدب، وكانت خطيبة مفوَّهة، كما أخذت بحظ وافٍ من الشعر، ولها أقوال تدل على أنها من أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، ومن أقوالها في أبيها «عمر» بعد أن استشهد على يد أبي لؤلؤة فيروز المجوسي - أخزاه الله -:

[الحمد لله الذي لا نظير له، والفرد الذي لا شريك له، أما بعد، فكل العجب من قوم زيَّن لهم الشيطان أعمالهم، وارعوى إلى صنيعهم، ورَبَّ في الفتنة لهم، ونصَب حبائله لِخَيْلِهم حتى هَمَّ عدو الله بإحياء البدعة، ونبش الفتنة، وتجديد الجور بعد دروسه، وإظهاره بعد دثُوره، وإراقة الدماء، وإباحة الحمى، وانتهاك محارم الله عزَّ وجلَّ بعد تحصينها، . . ومما قالته بعد طعنه وهو قائم بين يديّ ربه يصلي:

يا أبتاه! ما يحزنك وفادتك على رب رحيم، ولا تبعة لأحد عندك، ومعي لك بشارة لا أذيع السر مرتين، ونعم الشفيع لك العدل، لم تخف على الله عزَّ وجلَّ خَشْنَةُ عيشتك، وعفاف نهمتك، وأخذك بأكظام المشركين والمفسدين في الأرض.

وقالت فيه أيضاً: لم يزل سراجه زاهراً، وضوؤه لامعاً، ونوره ساطعاً، له من الأفعال الغُرَر، ومن الآراء المُصَاص-، المُصَاص: الخالص من كل شيء - ومن التقدم في طاعة الله اللباب، إلى أن قبضه الله إليه، تالياً لما خرج منه، شانياً لما ترك من أمره، شَيَّقاً لما كان فيه.

وقالت فيه أيضاً: نودي فأطاع، واحْتَذَى بأخيه الصديق، فأخرجها - أي الخلافة- من نسله، وصيَّرها شورى بين إخوته، فبأي أفعاله تتعلقون؟ وبأي مذاهبه تتمسكون؟ أبطرائقه القديمة في حياته، أم بعدله فيكم عند وفاته؟ ألهمنا الله وإياكم طاعته.

ونكتفي بهذه النماذج الدالة على تقدمها في مضمار الخطابة، لأن المقام لا يتسع لذكر المزيد.

ومن أبرز فضائلها: إسهامها في جمع كتاب الله تعالى، الذي كان بعضه مكتوباً على قطع من الجلد، أو العسُب، وبعضه مزروع في صدور الحفظة، ولما هلك كثير منهم في حروب الردة، أشار «عمر» رضي الله عنه على خليفة رسول الله ﷺ «أبي بكر الصديق» بجمع القرآن مخافة ضياع شيء منه. ولم يتردد «الصديق» في تأييد الفكرة، واستدعى كاتب الوحي «زيد بن ثابت» رضي الله عنه وأسند إليه تلك المهمة الجليلة، وانطلق «زيد» يبحث ويستقصي ويدقق وينسق، حتى إذا اجتمعت لديه كل الأشياء التي كان يكتب عليها القرآن، إضافة إلى ما أخذه عن الحفاظ، عكف على كتابتها في صحيفة واحدة. ولما فرغ أودعها «أبا بكر» رضي الله عنه ثم آلت إلى «عمر» رضي الله عنه بعد وفاة «الصديق» ثم عهد بها «عمر» إلى ابنته حفصة بنت عمر» فكانت في حِرْزٍ حَرِيزٍ- أي: في حصن حصين - محاطة بعناية الله وحفظه القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]. وبقيت تلك الصحيفة عند «حفصة» رضي الله عنها حتى آل الأمر إلى «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، وفي عهده خرج « حذيفة بن اليمان» إلى أذربيجان وأرمينية مجاهداً، فهاله ما سمع من اختلاف في القراءات، ولما عاد من جهاده، بادر إلى الخليفة، وأنبأه بما سمع، فشرح الله صدر «عُثْمَان» رضي الله عنه لجمع المصحف في نسخ موحدة، وإيداع نسخة منه لكل مصر.

وكلَّف «عثمان» رضي الله عنه أربعة من ثقات الصحابة، المشهود لهم بالعلم والفصاحة، وهم: «زيد بن ثابت» و «عبد الله بن الزبير» و«سعيد بن

العاص» و «عبد الرحمن بن الحارث بن هشام» بهذه المهمة الخطيرة، وكان قد استعار الصحيفة التي عند «حفصة» أم المؤمنين، فجعلها بين أيديهم، وأوصاهم بقوله: (إذا اختلفتم أنتم و«زيد بن ثابت» - وهو من الأنصار - في شيء، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم).

وحين أنجزت اللجنة عملها، بعث الخليفة «عثمان» بنسخة إلى كل مصر، واحتفظ بنسخة لديه، ثم أعاد إلى أم المؤمنين «حفصة» صحيفتها التي استعارها منها. جزى الله كل من أسهم في هذا الإنجاز العظيم عن المسلمين كل خير، ولقاهم خير ما أعده لعباده الصالحين.

مماراتها للنبي ﷺ وانتهاره لها: عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: [(لا يدخل النار إن شاء الله، من أصحاب الشجرة، أحد الذين بايعوا تحتها) قالت: بلى، يا رسول الله! فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71]، فقال النبي ﷺ: (قد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 72] [صحيح مسلم برقم: 163/ 2496]). وربما كانت تغضب منه ﷺ، فيسترضيها. وفي ذات يوم استأذنت «حفصة» النبي ﷺ في زيارة أبيها لبضعة أيام، فأذن لها، وأثناء غيابها، أتته سُرِّيَّتُهُ «مارية القبطية» فاستقبلها في بيت «حفصة»، وعند عودة «حفصة» وجدت «مارية» مع النبي ﷺ، فأبت أن تدخل بيتها حتى تخرج «مارية» منه، ولما خرجت، عاتبت «حفصة» النبي ﷺ وهي تبكي، فقال لها: (ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها؟) قالت: بلى، فحرمها واستكتمها الأمر، ولكنها أخبرت به «عائشة» رضي الله عنها وكانتا متصادقتين، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: 1] وأبلغ الوحي رسول الله ﷺ بصنيع «حفصة»، فلما عاتبها على كشف ما استكتمها وذكر لها ما دار بينها وبين «عائشة» لَمْ تَنْكِرْ، بل عجبت وحَسِبَت أن «عائشة» هي التي أطلعته على السر، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3]. لقد غاب عنها رضي الله عنها أن عناية الله محيطة

برسوله ﷺ، وعينه له كالئة، وأذنه لما يقال عنه سامعة، وأنه يسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصمَّاء، في الليلة الظلماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وكان «عمر» رضي الله عنه قد أوتي ذكاء فذًّا، وحكمة بالغة، وكان ينصح لابنته حتى تتلافى أي قول أو فعل يسخط رسول الله ﷺ عليها، وأمرها ألا تزاحم «عائشة» على قلب رسول الله ﷺ، وألَّا تساميها عنده، وكان يقول لها: أين أنت من عائشة؟ وأين أبوك من أبيها؟ وذات يوم كان «عمر» رضي الله عنه يتحدث مع إحدى نسائه فاعترضت عليه وعلا صوتها، على غير ما اعتاد منها، ولما هَمَّ بتأديبها بادرته بالقول: هناك من هي أفضل مني تراجع من هو أفضل منك. فكظم «عمر» غيظه، وأمسك عن تأديبها، وراح يستوضحها عَمَّنْ قصدته في كلامها، فأخبرته أن «حفصة» تراجع رسول الله ﷺ فيبقى مغضباً سائر يومه. واستعظم «عمر» الأمر، ومما زاد في دهشته أن يحدث مثل هذا دون علمه، وهُرِعَ إلى بيت «حفصة» ليستوضحها جلية الأمر، فلما أكدت له مراجعة أزواج النبي ﷺ له، حذَّرها من غضب الله عليها نصرة لرسوله ﷺ، ثم قال لها: «أي بُنَيَّة! لا يغُرَّنَّكِ هذه - يقصد عائشة - التي قد أعجبها حسنها، وحب رسول الله ﷺ إياها» ثم قال: «لاتراجعي رسول الله ﷺ أو تسأليه شيئاً، وسليني أنا كل ما بدا لك». إن «عمر» يحب رسول الله ﷺ أكثر من نفسه التي بين جنبيه، ومن أهله، ومن الناس أجمعين، فكيف يسكت على إغضاب ابنته للحبيب الأعظم ﷺ؟.

بِمَ كانت «حفصة» تقطِّع أوقاتها: كانت رضي الله عنها على كثير من التقى والورع، وحب الاستزادة من العبادة، وكانت تقطِّع الأيام، نهارها للصيام، وليلها للقيام، وتلاوة كتاب الله، والنظر في الحديث، إلَّا أن الغيرة كانت توقعها في اللَّمَم، إنها من ذرية طيبة لم تلتمس من الدنيا إلا رضاء الله، ولم تسع إلا وراء تقواه.

تعرضها لأبغض الحلال: أخرج الحاكم في مستدركه عن ابن أبي خيثمة، عن أنس رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ طلَّق «حفصة» تطليقة، فأتاه

جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! طلقت «حفصة» وهي صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة][1].

وأخرج أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب [عن موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، قال: طلَّق رسول الله ﷺ «حفصة بنت عمر»، فبلغ ذلك عمر، فحثا على رأسه التراب، وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد هذا، فنزل «جبريل» من الغد على رسول الله ﷺ، وقال: [إن الله يأمرك أن تراجع «حفصة بنت عمر» رحمة لعمر][2].

ثم أراد أن يطلقها ثانية، فقال له جبريل: (لا تطلقها فإنها صوَّامة قوَّامة)[3].

وفي قصيدة لي نظمتها عن مناقب أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين، خصصت السيدة «حفصة» رضي الله عنها بهذه الآيات:

من في النساء كحفصة إذ طُلِّقَت ... وقضى بِرَدِها أَحْكَم الحُكَمَاءِ؟
رَحْمَى بِهَا وبوالدٍ إسلامُه ... قَدْ أَظْهَرَ الإسلامَ بعد خَفَاءِ
وأعزَّه يَوْم الخُرُوج مُهَاجِراً ... جَهْرَاً، وأنذر مَعْشَر الْسُفَهَاءِ
بالثُّكْل لَو عَرَضوا لَه أو حَاوَلُوا ... أَنْ يَمْنَعُوه بخطَّةٍ حِنَاءِ
كَانَتْ تَقَطِّع يَوْمَهَا صَوَّامَةً ... قَوَّامَةً فِي اللَّيْلَة الْظَلْمَاءِ
أَفَلاَ يُكَافِئُهَا الَذِي صَامَتْ لَه؟ ... وسِوَاه لا يرجى لَدَى الضَّرَّاءِ

فهنيئاً لعمر ولابنته رحمة الله تعالى، وأي شيء بعدها يرام؟.

حفصة الراوية للحديث الشريف: ذكر الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في تهذيبه[4]: روي لها عن رسول الله ﷺ ستون حديثاً، وهي مجموعة في كتاب بَقِيِّ بن مخْلَد، كما ذكر ذلك الإمام الذهبي في السير[5].

---

(1) المستدرك (4/ 15).
(2) الاستيعاب (4/ 3297).
(3) الإصابة (7/ 538).
(4) التهذيب (2/ 339).
(5) سير أعلام النبلاء (2/ 30).

وصلها لليتامى والفقراء والمساكين: إلى جانب صلاتها وصيامها وقيامها كانت بعد التحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى تخرج للحج في كل موسم، فإذا فرغت من أداء المناسك، أطلقت يدها في النفقة على الأرامل واليتامى والفقراء والمساكين والمحتاجين بغير حساب، وكان ما يصلها من أعطيات الخلفاء، ما أسرع ما تضعه في حاجات الناس! لأن يقينها أن ما عند الله خير وأبقى، وعنده الجزاء الأوفى، وكانت إذا خرجت من دارها، قصدت المسجد لأداء المكتوبة، فإذا فرغت منها، أتت لزيارة ضريح الحبيب الأعظم ﷺ فسلَّمت ودعت بما شاء الله لها أن تدعو، ثم مالت إلى ضريحي صاحبيه «أبي بكر» وأبيها «عمر» مسلِّمة وداعية، فإذا غلبت الدموعُ جَلَدَها ؛ غادرت المكان إلى بيتها، وقد تجلى أمامها شريط الذكريات الطيبات، عن الأيام الخاليات.

وفاتها ووصيتها: كان «عمر» والدها قد أوصى لها، فأوصت بما أوصى إليها به «عمر» إلى أخيها «عبد الله»، وتصدقت بمال لها وقفته بالغابة - موضع معروف بالمدينة - على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل السلام، واختلف في سنة وفاتها فقيل سنة إحدى وأربعين أول ما بايع الحسن بن علي رضي الله عنهما معاوية رضي الله عنه وقيل: سنة خمس وأربعين، وصلى عليها مروان بن الحكم أمير المدينة، رحمها الله تعالى.

السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها

هل أتاك حديث أسعد المرضعات، التي نالتها أوفر البركات، بإرضاعها فخر الكائنات، عليه أكمل الصلوات، وأزكى التحيات؟

نسبها: إنها «حليمة السعدية» [بنت أبي ذؤيب، واسمه «عبد الله بن الحارث بن شِجْنة بن جابر بن رِزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن. كذا نقل أبو عمر هذا النسب، ووافقه ابن أبي خيثمة، وقال هشام بن الكلبي، وابن هشام: شجنة بن جابر بن رِزام بن ناصرة بن فُصَيَّة بن نصر بن

سعد بن بكر بن هوازن. وهذا أصح، إلا أن ابن الكلبي قال: اسم أبي ذؤيب: الحارث بن عبد الله بن شُجنة، والباقي مثل ابن هشام، ووافقهما البلاذري] انتهى كلام ابن الأثير [1].

وبذا أصبحت «حليمة السعدية» أم رسول الله ﷺ من الرضاع وقد روى عنها «عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما».

وزوج «حليمة» هو «الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن مَلاَّن بن ناصرة ابن فُصَيَّة بن نصر بن سعد بن بكر» كما ذكره ابن الأثير[2].

لماذا يدفع الرُّضَّع إلى المراضع؟: لقد شاع بين أشراف قريش ألا ترضع نساؤهن أطفالهن، وكانوا يدفعونهم إلى المراضع اللواتي يقدمن من البادية إلى مكة لالتماس الرضعاء، بغية تنشئتهم أصحَّاء الأجساد، فُصَحَاء الألسن، وقد قال ﷺ: «أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش، واسترضِعَتُ في بني سعد».

وقد أخرج ابن الأثير في «أسد الغابة» [عن ابن إسحاق، قال: حدثني جهم بن أبي الجهم مولى لامرأة من بني تميم، كانت عند «الحارث بن حاطب»، وكان يقال: مولى الحارث بن حاطب، قال: حدثني من سمع «عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» يقول: حُدِّثْتُ عن «حليمة بنت الحارث» أم رسول الله ﷺ التي أرضعته أنها قالت: قدمت مكة في نسوة من بني سعد ابن بكر نلتمس الرضعاء، في سنة شهباء: فقدمت على أتان قَمْراء[3]، كانت أَذَمَّتْ بالرَّكْب - أي: حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها- ومعي صبي لنا وشارف لنا، والله ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، ما يجد في ثديَيَّ ما يغنيه، ولا في شارفنا[4] ما يُغَذِّيه. فقدمنا مكة، فوالله، ما علمتُ

(1) أسد الغابة (5/ 251).
(2) أسد الغابة (5/ 252).
(3) القُمْرة: البياض فيه كدرة.
(4) الشارف: الناقة المسنة.

منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فإذا قيل: يتيم، تركناه، وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أب الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله، ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي «الحارث بن عبد العُزّى»: والله، إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقَنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذَنَّه. فقال: لا عليك، فذهبت، فأخذته، فما هو إلا أن أخذته، فجئتُ به رحلي، فأقبل عليَّ ثدييَ بما شاء من لبن، وشرب أخوه حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفي تلك فإذا بها حافلٌ - أي: ممتلئة باللبن - فحلب ما شرب وشربتُ حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال لي صاحبي: يا حليمة! والله، إني لأراك أخذتِ نَسَمَةً مباركة][1].

المعجزات التي رأتها حليمة: قدمت «حليمة» مع صواحبها من المراضع على ناقتها العجفاء، وكانت لضعفها متخلفة في آخر الرَّكْبِ، ولم يكن في صدرها نقطة من لبن، ولا في شارفها. ولما أمرتها «آمنة بن وهب» أن تحمل طفلها لتأخذه معها إلى البادية أحست أن صدرها قد علا وامتلأ ثدياها في اللحظة التي ضمته فيها إلى صدرها، حتى إذا عرضت ثديها عليه، التقمه ولم يدعه حتى روي، ثم عرضت عليه ثديها الآخر فأباه، وكأنه ألهم أن له شريكاً ما ينبغي له أن ينتقص من نصيبه شيئاً، فأقبل عليه ابنها حتى روي. ولما قام زوجها إلى الشارف وجدها حافلاً فحلبها، وسقى «حليمة» وشرب حتى رويا.

وعلى طريق العودة كانت أتان«حليمة» الضعيفة، في مقدمة الركب عزيمة ونشاطاً. ولم تخف هذه المعجزات على «الحارث» زوج «حليمة» حتى راح يقول لها: يا حليمة! والله، إني لأراك أخذت نَسَمَةً مباركة، أجل! إنه مبارك من فاطر الأرض والسماوات، وقد بعثه إلى الناس كافة، ليفيض عليهم بالبركات، ويملأ ديارهم بالخيرات.

(1) أسد الغابة (5/ 252).

انطلاق حليمة بالرضيع إلى ديارها: وعادت المراضع من مكة إلى ديارهن، وكل منهن بحوزتها الرضيع الذي قسمه الله لها، وكانت بنت «حليمة» وتُدعى «الشيماء» في استقبال أهلها، وما إن رأت أخاها الجديد حتى أحست بأنها مشدودة إليه وكأنها تعرفه منذ أمد بعيد، لقد وقع حبه في قلبها من النظرة الأولى، فمنحته كل وقتها، ولم يكن حظ «حليمة» منه إلا زمن الرضاع، وتملكت الدهشة والعجب صواحب «حليمة» وهن عائدات معها لما رأينه من حال أتانها، فقد كانت في طريق الذهاب إلى مكة متخلفة عن الركْب، فما بالها الآن تسبق حمرهن الفتية في العودة حتى ما تطيق تلك الحمر أن تلحق بها؟ حتى قلن لها: يا ابنة أبي ذؤيب! ويحك، انتظرينا، أليست هذه أتانك التي خرجت عليها؟ فترد عليهن بقولها: بلى، والله، إنها لهي هي، فيقلن: والله، إن لها لشأناً.

أحوال المراعي تتبدل: ولما بلغت «حليمة» ديارها، أمرت رعاءها بالخروج إلى المراعي في شُوَيْهات لها، فلما عاد الرعاء وجدت العجب، تقول حليمة متحدثة عن أرض قومها في بني سعد: وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ، حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلُب ونشرب، وما يحلُب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب.

إنها بركة الرضيع الصغير «محمد» ﷺ.

الشيماء وأخوها الجديد: كان أخوها«عبد الله» الذي حملته أم الشيماء معها إلى مكة، محباً إلى أخته، بيد أنها أحَسَّتْ أن هذا الأخ القادم من مكة قد استحوذ على قلبها، وأصبحت أميل إليه، حتى ما تطيق أن تحوِّل بصرها عنه، أو تفارقه، فلنستمع إليها وهي ترقصه وتقول:

هَـذَا أَخ لِـي لَـمْ تَـلِـدْهُ أُمِـي وَلَـيْـسَ مِـنْ نَـسْـل أَبِـي وَعَـمِّـي
فَأَنْمِهِ اللَّهُم فِيمَا تَنْمِي

لقد جعلت رعايته والعناية به شطرين بينها وبين أمها «حليمة»، أما «حليمة» فكان حظها منه الرضاع، وأما «الشيماء» فقد ذهبت بكل ما سواه، وسمعت ذات مرة تُرَقِّصُه وتلاعبه وتقول:

يَـا رَبَّـنَـا أَبْـقِ أَخِـي مُـحَـمَّـدَا   حَـتَّـى أَرَاهُ يَـافِـعًـا وأمْـرَدَا

ثُـمَّ أَرَاهُ سَـيِّـدًا مُـسَـوَّدَا   واكْبِتْ أَعَادِيه مَعًا والحُسَّدَا

وأَعْـطِـه عِـزًّا يَـدُومُ أَبَـدَا

لله دَرُّكِ، يا شيماء! لقد استجاب الله لدعائك، وأعطاه عزًّا ومجداً لم يعز بمثلهما أحد من خَلْقِه أجمَعين.

ومرت الأيام سراعاً حتى اكتملت السنتان، وهي مدة الرضاع، شَبَّ خلالها «محمد» ﷺ شباباً لا يشبه شباب غيره من الغلمان، ففطمته «حليمة» لتعود به إلى أمه «آمنة» بمكة. وأحست «الشيماء» أن قلبها قد فارقها، وأسرَّت إلى أمها بكلمات، فهل يجيبها الله ويحققها لها كما عَوَّدها؟ ودخلت «حليمة» على «آمنة» ومعها ابنها «محمد» ﷺ، فكاد قلب «آمنة» يطير من السرور، فضمته إلى صدرها، وراحت تغدق عليه من قبلاتها، وتملأ عينيها من نور طلعته البهية، ثم سمعت «حليمة» تقول لها على استحياء: لو تركت بُنَيَّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة. وكادت «حليمة» تطير فرحاً، حين أذنت لها «آمنة» بردِّه معها.

وانقلبت «حليمة» إلى ديار قومها، ومعها «ابن آمنة» الحبيب، وكانت «الشيماء» تنتظر عودة أمها، من مكة، على أحر من الجمر، وما إن رأتها عائدة بأخيها القرشي، حتى انهمرت الدموع من عينيها، وراحت تدعو الله، وتشكر له الاستجابة لكلماتها التي أسرَّت بها إلى أمها، لقد أيقنت «الشيماء» أن الله سميعٌ مجيبُ الدعاء.

وكان سرور عائلة«الحارث السعدي» جميعها عظيماً بعودة «محمد» ﷺ إلى بيتهم ليشاطرهم العيش، وذلك لما أصابوا من بركته وهو بينهم، وكان أخشى ما يخشونه أن تذهب تلك البركة برحيله عنهم، فازدادت رعايتهم

obeikandl.com

له، وعنايتهم به، وكانت فرحة «الشيماء» بعودته هي الأعظم، لأنها كانت تجد بقربه الأنس والأمان، ولا تستطيع تحمل فكرة البعد عنه أو مفارقته.

وخرج ذات يوم، مع أخيها «عبد الله» يرتعان ويلعبان خلف البيوت، ولم يغيبا إلا قليلاً، حتى عاد «عبد الله» على عجل، وهو يصرخ: أبي! أمي! أدركا أخي القرشي، وانتابتهما الوساوس، وأخذت بهما الأفكار السيئة كل مأخذ، للطريقة التي جاءهما بها «عبد الله» واللهجة التي خاطبهما بها. وهُرِعَت «حليمة» وزوجها «الحارث» إلى مكان وجود «محمد» ﷺ فوجداه ممدداً على الأرض، ممتقع اللون، فاحتضنته «حليمة» وضمته إلى صدرها، وراحت تسأله، ما بك يا بني؟ ولما هدأ روعه، قال: (جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو؟)، ثم حملاه وانطلقا به إلى البيت. وأجمع «الحارث» وامرأته «حليمة» أمرهما على إعادته إلى أمه، لئلا يصيبه مكروه لديهما، ولم يرجئا ما اتفقا عليه، بل نَفَّذاه في الحال.

وارتابت «آمنة» في إعادة ابنها إليها بهذه السرعة، ولما سألتهما عن سبب عودتهما المفاجئة والعاجلة به، وقد كانا حريصين كل الحرص على تمديد إقامته لديهما. قالت «حليمة». لقد تَخَوَّفْنَا عليه أن يناله مكروه، ورأينا أن دارك آمن له من دارنا، وزادت «آمنة» ريبة بما سمعت، ثم ألحَّت عليهما أن يصدقاها القول، وعند ذلك، لم تجد «حليمة» مناصاً من إخبارها بما حدث. وتَنَفَّسَتْ «آمنة» الصعداء، ثم قالت لحليمة: أخشيت عليه الشيطان؟ كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل، والله، إنه لكائن لابْني هذا شأنٌ، أفلا أخبرك خبره؟ قالت حليمة: بلى.

قالت آمنة: رأيت حين حملت به نوراً أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، والله، ما رأيت من حمل كان أخف عليَّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يده بالأرض، رافع رأسه إلى السماء، دعيه وانطلقي راشدة. ثم إن «حليمة» ودعتهما، وعيناها تفيضان بالدمع الغزير، ثم عادت إلى أهلها وفي النفس حسرة على فراق الحبيب.

وقد أخرج أبو داود في سننه، عن عمارة بن ثوبان: أن أبا الطفيل أخبره، قال: رأيت النبي ﷺ يقسم لحماً- بالجعرانة - قال أبو الطفيل: وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور- إذْ أقبلت امرأة حتى دنت إلى النبي ﷺ فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هي؟ فقالوا: هذه أمه التي أرضعته[1].

وأخرج الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية : وقال الواقدي: حدثني معاذ بن محمد، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، قال: خرجت «حليمة» تطلب النبي ﷺ وقد وجدت البُهْمَ تقبل فوجدته مع أخته، فقالت: في هذا الحر؟ فقالت أخته: يا أُمَّهْ! ما وجد أخي حَرًّا، رأيت غمامة تظلِّل عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع[2].

إسلامها وزوجها وأولادها: قال صاحب السيرة الحلبية [إن «الحارث» هذا قدم على رسول الله ﷺ بمكة بعد نزول القرآن عليه ﷺ فقالت له قريش: أو تسمع يا حارث ما يقول ابنك؟ فقال: وما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث من في القبور، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه، ويكرم فيهما من أطاعه: أي يعذب في إحداهما من عصاه، وهي النار، ويكرم في الأخرى من أطاعه، وهي الجنة، فقد شتَّت أمرنا، وفَرَّق جماعتنا، فأتاه فقال: أي بني! ما لك ولقومك، يشكونك ويزعمون أنك تقول كذا: أي أن الناس يبعثون بعد الموت، ثم يصيرون إلى جنة ونار، فقال له رسول الله ﷺ «نعم، أنا أقول ذلك» - وفي لفظ - أنا أزعم ذلك، ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت! فلآخذن بيدك حتى أُعَرِّفك حديثك اليوم، فأسلم «الحارث» بعد ذلك، وحسن إسلامه][3]، وللحافظ مغلطاي مؤلف سماه: «التحفة الجسيمة في إسلام حليمة».

---

(1) أبو داود كتاب الأدب رقم (4478).
(2) البداية والنهاية (2/ 678-679).
(3) السيرة الحلبية (1/ 144-145).

وفي شرح الهمزية لابن حجر: ومن سعادتها يعني «حليمة» - توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها، وهم «عبد الله» و «الشيماء»، و«أنيسة» هذا كلامه. ولم يعرف تاريخ وفاة «حليمة» رحمها الله تعالى.

السيدة حمنة بنت جحش الأسدية رضي الله عنها

نسبها: اسمها«حمنة»، وأبوها «جحش بن رئاب» وأمها «أميمة بنت عبد المطلب»، وإخوتها: «عبد الله» استشهد يوم أحد، و«أبو أحمد» الشاعر الضرير، و«عبيد الله» هاجر مع امرأته «أم حبيبة بنت أبي سفيان» إلى الحبشة، وتَحوَّل فيها إلى النصرانية، وأكب على الخمر، ومات كافراً.

وأخواتها: «زينب» زوج النبي ﷺ و «أم حبيبة» أو«أم حبيب» بإسقاط الهاء، كانت «حَمنة» و«أم حبيبة» تتحاضان.

هجرتها إلى المدينة: هاجرت مع أخويها «عبد الله» و«أبي أحمد» وأختيها «زينب» و«أم حبيبة»، وكانت بين الذين خاضوا في الإفك على المبرأة المطهرة «عائشة» سيدة العفيفات، وقد جلدت في ذلك مع من جلد فيه عند من صَحَّح جلدهم، وقيل: لم يجلد أحد.

زواجها: تزوجت «حمنة» في المدينة، من السفير المقرىء «مصعب بن عمير» ولم تلد له، وخرج زوجها «مصعب» حاملاً لواء رسول الله ﷺ يوم أحد، وقد استشهد في المعركة، وخرجت «حمنة» معه لتداوي الجرحى وتسقي العطاش، وكانت خسارة المسلمين فادحة، حيث سقط عدد من كبار الصحابة شهداء، ولما انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة لقيته «حمنة بنت جحش» فنعى لها أخوها«عبد الله بن جحش» فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها «حمزة بن عبد المطلب» فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها «مصعب بن عمير» فصاحت وولولت ،

فقال رسول الله ﷺ: (إن زوج المرأة منها لبمكان)، لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها. وكان ابن قميئة - أو قَمِئة- هو الذي قتل «مصعباً» رحمه الله تعالى.

ولما حلَّت «حمنة» تزوجها «طلحة بن عبيد الله» فولدت له «محمداً» و «عمران» ابني «طلحة»، وقد روى عنها ابنها «عمران»، وظلت «حمنة» مستمسكة بدينها، حتى وافاها الأجل، رحمها الله تعالى.

السيدة حمنة بنت سفيان رضي الله عنها

نسبها: اسمها «حمنة»، وأبوها «سفيان بن أمية» وابن عمها: «أبو سفيان صخر بن حرب»، وزوجها «مالك بن أُهيب» واسمه «أبو وقاص» وبه عرف، وقد ولدت له «سعداً» وغيره.

بر «سعد» بأمه: كان «سعد» شديد البر بأمه، حريصاً على مرضاتها، لكن رضاء الله أولى، وأسلم «سعد» في غفلة منها، فلما اطلعت على أمره أمرته بالرجوع إلى دين آبائه فأبى فحلفت ألا تواكله، وألَّا تشاربه، وألَّا تكلمه حتى يرجع عن هذا الدين الذي دخل فيه، ثم نفَّذت قسمها، فلما مضى يومان أو ثلاثة، كادت تهلك جوعاً وعطشاً فقال لها «سعد»: «يا أماه! لو كان لك ألف نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء» فلما رأت إصراره أكلت وشربت، ونزل قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]. وكان «سعد» مجاب الدعوة، فدعا لأمه بالهداية، ويوم الفتح، وقفت ثلة من النسوة أمام رسول الله ﷺ يبايعنه على الإسلام وكانت معهن «حمنة» أم سعد، رحمها الله تعالى.

السيدة حواء الأنصارية رضي الله عنها

«حواء بنت يزيد بن سنان بن كرز بن زعوراء «الأنصارية» قال «مصعب»: أسلمت، وكانت تكتم إسلامها من زوجها «قيس بن الخطيم» الشاعر، فلما قدم «قيس» مكة حين خرجوا يطلبون الحِلْفَ من قريش، عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، فاستنظره «قيس» حتى يقدم المدينة، فسأله رسول الله ﷺ أن يجتنب زوجته «حواء بنت يزيد»، وأوصاه بها خيراً، وقال له: (إنها قد أسلمت)، ففعل «قيس»، وحفظ وصية رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، وقال: (وَفَى الأُدَيْعِجُ).

وقد أنكر بعض العلماء هذا على «مصعب»، وقال منكره: إن زوجها «قيس بن شماس»، وأما «قيس بن الخطيم» فقتل قبل الهجرة. قال أبو عمر: والقول قول «مصعب»، و«قيس بن شماس» أسنُّ من «قيس بن الخطيم» ولم يدرك الإسلام، أخرجه أبو عمر.

قلتُ: قد وافق «مصعباً» ابنُ إسحاق، فجعلها امرأة «قيس بن الخطيم»[1]. رحمها الله تعالى.

السيدة خالدة بنت الأسود رضي الله عنها

قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: [«خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث» ذكرها «بقي بن مخلد» في تفسير سورة «آل عمران» في قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [آل عمران: 27] وذكره بسنده عن معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليها فرأى عندها امرأة تصلي في المسجد، وكانت متعبدة، فقال النبي ﷺ: (يا عائشة! من هذه؟) قالت: إحدى خالاتك. قال: (إن

(1) أسد الغابة (5/ 256) والاستيعاب (4/ 1814).